دور المرأة المصرية فى الرقصات الشعبية بين التراث والتغريب الثقافي

مقدم من

أ.م.د/سمر سعيد شعبان

الأستاذ المساعد للرقص والألعاب الشعبية

بأكاديمية الفنون – المعهد العالي للفنون الشعبية

يعد التراث الشعبي من أهم روافد الثقافة فى العصور المختلفة لما لها من تأثير مباشر فى وجدان الشعوب كما انه يجمع بين المعتقدات الشعبية والعادات المتوارثة من جيل إلى آخر وهو من الممارسات الهامه التى اهتم بها الإنسان البدائي منذ فجر التاريخ .

كما تلعب الثقافة الشعبية دور كبير وهام فى الحفاظ على الموروث الثقافي الذى يميز المجتمعات المصرية، بما فيها من تنوع ثقافي (عادات وتقاليد– فنون– ثقافة مادية) يجعل منها منطقة خصبة ومادة ثرية للباحثين، " كما أن التراث الشعبي أكثر تمثيلاً لروح الشعب ومنطقة وتفكيره ومعايره فى تقدير الأمور".١

حينما يرد مصطلح (التغريب)، فهو يعني بالضرورة، صبغ المجتمع.. أي مجتمع، بالثقافة الغربية وأسلوب الحياة الغربي. يدخل في ذلك القوانين، والتشريعات، ومنظومة القيم..التي تسيَر حياة الناس، بما فيها دور الرجل والمرأة في الحياة العامة، وطبيعة العلاقة بين الجنسين، ونمط العيش والعمل، وطرائق التسلية والترفيه، وطريقة اللبس.. بل حتى الموسيقى والفلكلور.

التغريب هنا، يختلف عن التحديث والأسلوب العصري والحديث للحياة، الذي هو التعاطي مع التقنية وأساليب الإدارة الحديثة، والاستفادة من منجزات الحياة العصرية. لأنه.. لو كان الغرب فقط، هو من ينجز التقنية ويصنع التقدم التكنولوجي.. لجاز لنا أن نصف ذلك بالتغريب. لكن التقدم والتطور التقني، منجز بشري أسهمت وتساهم فيه كل أمم الأرض. بل إن أمة مثل اليابان، لها إسهامات في هذا المجال، تفوق معظم الأمم الغربية، من دول الإتحاد الأوروبي.

الخلاصة أن هناك تغريبا (westernization)، وهناك تحديثا (modernization).. والفرق بينهما واضح. إذ ليس كل تقدم علمي وتطور تقني يعد (تغريبا)، كما أنه ليس كل ما يأتي من الغرب، هو عصرنة و (تحديثا). من المؤكد بناء على ذلك، أن هناك فرقا بين التحديث والتغريب. التحديث باختصار، استيراد التقنية و(توطينها)، أما التغريب فهو عملية ثقافية، تقوم على نبذ القيم والثقافة الأصلية، وإحلال القيم الغربية مكانها.

والتغريب هنا يعنى n صبغ المجتمعات بالصبغة الغربية في كل جوانب الفكر والسلوك، وبهذا يصبح المجتمع يفكر ويعيش كما يفكر ويعيش الغربيون ، فلا يبقى له من عاداته وتقاليده إلا القليل، وهنا يجب علينا أن ننتبه إلى خطورة هذا التغريب لأن طمس الهوية الثقافية من أخطر أنواع الحروب .

وقد اتخذ هذا التغريب مظاهر متنوعة منها الفكري والاجتماعي والسلوكي على النحو التالي :

الجانب السياسي :-

ظهرت أنظمة الحكم المقلدة للأنظمة الغربية ، والتي أصبحت تنظر إلى النظام الديمقراطي الغربي وحقوق الإنسان حسب المفهوم الغربي على أنه الأصوب والأرقى وساهم الجانب السياسي بشكل كبير من خلال القائمين والراعون لهذا الفكر ومساعدتهم وإيصالهم إلى مواقع صنع القرار لكي يأخذوا دورهم في الترويج للفكر الغربي وأنماط الحياة الغربية.

المجال الاجتماعي:-

اجتاحت المنطقة حالة هستيريا التقليد الأعمى، الذي ظهر على حياة الناس في مأكلهم ومشربهم وملبسهم وكافة أنماط معيشتهم، والبعد عن الجذور الثقافية التى ينتمون إليها ومحاولة التخلي عن كل ما هو موروث ثقافي كان يظهر طبيعة كل مجتمع وتميزه عن الأخر من خلال مجموعة من العناصر الهامة والمؤثرة فى حياة الفرد ومن أهم هذه الموروثات :-

احتفالات الزواج :-

التى كانت لها مراسم معينة وتقدم بشكل احتفالى خاص يختلف من مجتمع إلى مجتمع أخر ولكن مع التغريب الثقافي أصبحت هذه الاحتفالات تأخذ شكل يختلف تماما عن ماهو كان قديما، علما بأن لكل مجتمع من المجتمعات ما يتميز به من سمات خاصة تجعله يختلف عن الأخر فى هذه الأحتفالية وسوف تستعرض الباحثة نموذجا يوضح أهم السمات التى كانت تمارس فى هذا الاحتفال .

احتفالية الزواج فى المجتمع الفلاحى :-

يتميز احتفال الزواج فى المجتمع الفلاحى ببعض الرقصات الشعبية الخاصة التى تجعل من الفرح أكثر من مجرد احتفال عائلي، فنرى الأمر يتحول إلى مهرجان وعرس قروى شامل تشارك فيه كل القرية رجالها ونسائها صغيرها وكبيرها ونرى الأنوار تضيء ظلمة الأراضى الزراعية وتعلو أصوات الحفل، كما كانت تعتمد على الفرق الموسيقية الشعبية التى كانت تحيل من ليلها الهادئ إلى أخر ملئ بالبهجة والسرور.

احتفالية الزواج فى المجتمع البدوى :-

يطلق على الاحتفال بالزواج فى المجتمع البدوى (السامر) ، كما يقام السامر أيضا عند الاحتفال بضيف كبير، من أهم ما يميز هذا الاحتفال أنه يقام منذ بداية الخطبة حتى الزفاف والتي تظل من عشرة أيام إلى خمس عشر يوما وينقسم الاحتفال إلى :-

أولا : السامر

فى هذا الجزء يقف الرجال على هيئة صف ثم يبدأ أحدهم بالغناء الفردي ويسمونه (البوشان) وهو عبارة عن شعر من أربع شطرات ويؤدى بنظام خاص غالبا وصف للعروسين .

ثانيا : الدحية

يتسم هذا الجزء بالسرعة والحماس وفيه تدخل (الحاشى) أمام الصف فيزداد حماس الرجال وفيه يردد الرجال (دحية– دحية) طول الأداء، ويعتبر هذا الحوار الحركي الراقص من أبرز ما يميز السامر .

ثالثا : الريدة

هذا الجزء يتسم بأنه بطيئ وهادئ، وفيه يبدأ أحد الرجال الموجودين فى الصف بالغناء بطريقة ارتجالي ويسمونه (البدبع) وهذا لأنه يقوم بألقاء الشعر بطريقة مبدعه وفصيحة .

وبعد عرض هذه الاحتفالات يمكن القول أن هذه الاحتفالات أصبحت نادرة الوجود إلا فى أماكن قليلة جدا وأصبح الاحتفال يقتصر على استخدام (–D.J– وقاعات الأفراح– وأغانى المهرجانات) .

ومن خلال ما سبق يتضح لنا ما فعله التغريب الثقافي ومدى تأثيره على الموروثات الثقافية، ولكن على الرغم من كل ما حدث يوجد كثيرا من الأبحاث والمهتمين بالحفاظ على هذه الموروثات وتفعيل دور الباحثين والمهتمين، وهنا يجب علينا إلقاء الضوء على دور المرأة فى الحفاظ على هذه الموروثات الثقافية فى مجالات عدة أهمها :- (الحرف الشعبية– القصص الشعبية– الموسيقى الشعبية– الرقص الشعبي) .

دائماً ما يشير بعض المشتغلين على التراث الشعبي بأهمية دور المرأة، ويرجع أهمية دور المرأة إلى أن أي تراث شعبي له ميزة التعبير عن حكمة ورؤية شعبه ونظرته الكونية، وتراثنا الشعبي أعطى المرأة دوراً بارزاً في جميع نواحي الحياة .

فإذا نظرنا إلى الموضوع من جانب **الحرف الشعبية** سنجد أنها تلعب الدور الأساسي في أغلب أنواع الحرف الشعبية من (حصير– مشغولات نحاسية – أعمال التطريز) وهذا يمثل جانباً كبيراً من اهتمامها، كما أصبح اليوم يمثل لها جزء كبير من دخلها التى تساهم به فى ظروف .

وكذلك في **الموسيقى الشعبية** كان لها الدور الأكبر في تأسيس الفرق الشعبية التي لاتزال قائمة حتى اليوم، والتي ساهمت في الحفاظ على النصوص الشعرية وغيرها من أساليب الغناء،والتي تستخدمها دائما فى عادات دورة الحياة (السبوع – الخطبة – الزواج – الموت) .

وكذلك في **الرقصات الشعبية** التى تؤدى فى مختلف الاحتفالات والتي تعتمد على تجمع النساء مع بعضهم البعض من أجل أداء بعض الحركات الراقصة، مثال على ذلك عادات دورة الحياة (السبوع – الخطبة – الزواج) وأيضا الطقوس والحركات التى تؤدى فى **الزار** .

هذا إلى جانب دورها كراوية للقصص الشعبية، فهي في سردها مختلفة، إذ تقول الحكاية ومن ثم تقوم بتعديلها وخلق أجواء أخرى، إذ كانت تروي القصص بأساليب مبتكرة، فالتراث نظر إلى المرأة أيضاً على أنها عالم قائم بذاته. فكان لها دورها في مجال الحفاظ على العادات والتقاليد وكل ما يتعلق بالتراث الشعبي والحرف والصناعات .. ولا ننكر أن لكل مجتمع جوانبه السلبية والإيجابية.

"ولما كان التراث الشعبي تعبير حقيقي عن العقل الجمعي وانعكاس لوعيه وسلوكه الاجتماعي، فإن هذا التراث يكشف لكل باحث كيف اهتم التراث الشعبى بوجود المرأة في الحياة، وهو ما عبر عنه الفلكلور الشعبي بالعديد من الابيات التي تحفظها الجدات والأمهات وتنقلها إلى الأبناء والأحفاد عن طريق الانتقال الشفاهى"٢.

وتعد نشأة أى فنان ومسيرة حياته السجل الحقيقي الذى يطلعنا على العوامل التى أثرت فى تكوينه، وستحاول الباحثة إلقاء الضوء على دور الفنانة فريدة فهمي فى الحفاظ على الموروث الشعبى عن طريق دورها فى الحفاظ على الرقصات الشعبية المصرية ومدى تأثيرها وتغير نظرة المجتمع إلى رقصة الفنون الشعبية، وكيف أثرت ظروف نشأته وحياته فى إثراء خبرته وتجاربه الفنية .

فريدة فهمي

ولدت " فريدة فهمي فى ٢٩ يونيه ١٩٤٠ " بالقاهرة، وقد تميزت منذ شبابها الباكر بتفوقها الرياضي كإحدى لاعبات السباحة بنادى هليوليدو، وكانت البداية لفريدة فهمي مع فرقة رضا منذ كانت طالبة بكلية الآداب جامعة القاهرة وقد شجعها على ذلك والدها الدكتور حسن فهمي أستاذ الجامعة حيث لم تكن فريدة فهمي فى حاجة إلى عمل تتعيش منه، وإنما رقصت لاقتناعها بأنها تؤدى فنا من أرقى الفنون فى العالم، فالفن كلمة تحوى فى مضمونها الجمال والسمو والرقى ولا يعيبه ألا من يستغل هذا المسمى لتقديم أعمال هابطة تسئ إليه .

والمعروف أنه فى ذلك الوقت كان الرقص فى مصر مهنة من ليست لها مهنة تلجأ إليها الراقصة إذا ضاقت بها سبل الحياة، فتهرب من بيت العائلة وتلجأ الى الرقص كأسهل طريقة للكسب، ومن الطبيعي أن معظم المصريات يتمتعن بموهبة الرقص الشرقي نتيجة العادات التى نشأن عليها فأثرت هذه العادات عليهن فلا تحتاج الراقصة من هذا النوع إلى تدريب وإنما يكفى أن يكون لديها اللياقة والقوام الممشوق والوجه المعبر.

لقد نشأت فريدة فهمي فى مرحلة لم يكن الفن الاستعراضى المستلهم من الفنون الشعبية معروفا بالمفهوم الذى نعرفه الأن، كفن مسرحي راق يسهم فى الحفاظ على التراث الشعبى والفنون الشعبية، ويحتاج إلى دراسة وتدريب وتصميم وإخراج وليس فى إمكان أية مؤدية ذات موهبة أن تحترف هذه المهنة دون أن تمر بمراحل دراسة وتدريب وإعداد شاق

عندما اقتنعت فريدة فهمي بهذه المعاني الجميلة عن فن الرقص لم تدخر جهدا فى التدريب والتعليم حتى جاءت عروضها على المسرح معبرة عن تجربة ووعى وفهم لطبيعة الرقصات التى تؤديها، ومن هذا المنطلق رقصت " فريدة فهمي " الطالبة بكلية الأداب جامعة القاهرة بالإضافة إلى المستوى العالي الذى أدت به عروضها على المسرح، فان أحدا من المشاهدين لم ينظر إليها تلك النظرة التى طالما التصقت بهذا الفن فى الماضي، بل إن كبار الكتاب والصحفيين ذكروا فى مقالاتهم عنها أنهم أمام أخت لهم تقدم على المسرح أروع الفنون وقد كان نتيجة لذلك أن تغير مفهوم الناس لهذا الفن وأصبح الرقص الشعبى منتشراً فى معظم محافظات مصر تؤديه فرق ترعاها الدولة وأصبحت هذه الفرق تجوب العالم وتمثل مصر فى المهرجانات العالمية فتعطى أروع الأمثلة عن الثقافة والحضارة المصرية.

بنت البلد

وعندما بدأت فرقة رضا واجهت الفرقة عدة مشكلات فنية، فكيف تعبر بنت البلد بالحركة، وكيف تتحرك الفلاحة المصرية على المسرح وماهى أوضاع وتشكيلات المفردات الحركية للرقص المصرى المستلهم من الفن الشعبى؟ وعملت " فريدة " و " ومحمود رضا " على اكتشاف هذه الحركات والمعانى التى تعبر عنها فى محاولة لتوضيحها ووضعها فى مناهج يسهل تعليمها للراقص والراقصة أعضاء الفرقة. وقد استلزم هذا جهدا كبيراً حتى أصبح لفرقة رضا أسلوب مميز فى التدريب وتصميم الرقصات تنفرد به دون سائر الفرق التى كانت تقلد الحركات وتاخذها قضية مسلمة ولم تقدر أو تعرف الجهد الذى بذل لإرساء هذه القواعد أو هذا الأسلوب.

وقد كانت " فريدة فهمي" ملتزمة بآداب العروض المسرحية ومتطلباتها التزاما لا حدود له، ومن أمثلة ذلك ما حدث لها أثناء عرض قدمته الفرقة للترفيه عن الجنود المصريين أثناء حرب الاستنزاف، فكان العرض وسط الصحراء حيث أعد الجيش مكانا للرقص عبارة عن قماش الخيم مدهون بالشمع وكان المكان جاهزاً ومعرضا للشمس مدة طويلة، وطبيعى أن يكون الشمع الذى يغطى القماش سببا فى تزحلق الراقصين والراقصات فيضعف من مستوى العرض فما كان من فريدة أن خلعت حذاءها أثناء الرقص غير مدركة لسخونة الأرض المدهونة بالشمع. وبعد انتهاء العرض تم نقلها إلى المستشفى حيت تورمت قدماها من شدة الحرارة ولما سألت لماذا لم تترك الرقصة وتخرج بدلا من تعرضها للمخاطر قالت ما ذنب المتفرجين.

عروض فرقة رضا للترفيه عن الجنود

ويحكى الفنان محمود رضا عن تفانى فريدة فهمي والتزامها قائلآ : " ان فريدة فهمي أكثر أعضاء الفرقة التزاماً وحباً لفنها وردآ على موقفها سوف أقارن هذا الموقف بموقف فرقة الرقص الأمريكية العالمية " الفين ايلى" عندما كانت تقدم عروضها بمسرح الصوت والضوء بالهرم، وكان هناك فى الجو بعض الرطوبة التى جعلت أرضية المسرح" زلقة"بعض الشئ فما كان من الفنان " الفين ايلى" إلا أن قام بنفسه بالاعتذار للجمهور وألغى العرض بأكمله لهذا السبب، كان له كل الحق طبعا فى هذا التصرف خوفا منه على سلامة الراقصين، ولكن فريدة فضلت احترام المشاهدين من جنود وضباط الجيش على سلامتها٣ .

ولم تكن فريدة فهمي راقصة مبدعة فحسب، بل كانت مصممة أزياء واعية فمن مواهبها التى لا يعرفها جمهورها العريض نبوغها فى تصميم الأزياء الخاصة بعروض الفرقة وأبسط مثل على ذلك موشحات فرقة رضا المعروفة والتي قامت فريدة بتصميم جميع الملابس الخاصة بتلك الموشحات، فوفرت لهذا البرنامج أهم عناصر نجاحه .

صور تعبر عن تصميمات فريدة فهمي لأزياء فرقة رضا

ولم يعطل اهتمامها بهذا الفن عن دراستها حتى حصلت على ليسانس الأداب ثم سخرت هذه الدراسة لخدمة هذا الفن بحصولها على درجة الماجستير من جامعة كاليفورنيا U.C.L.A بالولايات المتحدة فى مادة الرقص الشعبى المصرى وعنوانها " التطور الإبداعى عند محمود رضا ".

هذه هى فريدة فهمي رائدة فرقة رضا ورائدة الفنون الشعبية فى مصر والتي داومت على عطائها بصفة مستمرة على مر السنين منذ إنشاء فرقة رضا عام ١٩٥٩ وحتى يومنا هذا سواء على خشبة المسرح داخل البلاد أو فى معظم أنحاء العالم أو على شاشات السينما والتليفزيون أو فى دراساتها الأكاديمية بجامعات مصر وأمريكا.

وقد استحقت فريدة فهمي بجدارة وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى منحه لها الرئيس الراحل " جمال عبد الناصر" ووسام الكوكب الأردنى، منحه لها الملك "حسين " ملك الأردن ووسام " الحبيب بورقيبة" رئيس تونس، والعديد من شهادات التقدير .

فريدة تتسلم وسام العلوم والفنون من الرئيس عبد الناصر

الخاتمة

لقد مرت رحلة هذا البحث لكي تظهر أهمية دور المرأة المصرية فى الحفاظ على الموروثات الشعبية عامة والرقص الشعبى خاصة، وكيف كان دور الفنانة فريدة فهمي فى نقل هذا التراث من البيئات المختلفة فى المجتمع، وتوظيفه على خشبة المسرح من أجل الحفاظ عليه من الاندثار، وإلقاء الضوء على فن من أهم الفنون الذى يعكس الحياة الأجتماعية للمجتمع المصرى، مما أدى إلى البعد عن التغريب الثقافي بشكل كبير، حيث يتم حتى الآن أداء هذه الرقصات الشعبية من خلال فرقة رضا للفنون الشعبية .

ومن هذا المنطلق ظهر دور الفنان المبدع محمود رضا، والفنانة فريدة فهمي فى ريادة هذا الفن الشعبى الأصيل ووضع له الأسس والأسلوب الفني الذى يعتمد على الوصول بالفنان الراقص والراقصة إلى أعلى مستويات الأداء الفني .

المراجع

١. أجلال محمد أبراهيم– نادية محمد درويش الرقص الأبتكارى الحديث دار الهنا للطباعة ١٩٧١ .

٢. أحمد رشدى صالح– الفنون الشعبية فى ثمانية أعوام (١٩٥٢– ١٩٦٠) مجلة الفنون الشعبية – العدد الثانى – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٠ م .

٣. الرقص والحياة – قصة حياة محمود رضا– الكتاب الذهبى مؤسسة روزاليوسف ٢٠٠٢

٤. سعد الخادم– الرقص الشعبى فى مصر – المكتبة الثقافية – العدد ٢٨٦ – مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ .

٥. سمير جابر – الرقص الشعبى فى مصر – الهيئة العامة للأستعلامات – الفنون الشعبية المصرية – دار الأسكندرية للطباعة والنشر وزارة الأعلام ١٩٩٣ .

٦. عادل عمر عفيفى نحو دراسة علمية للرقص الشعبى العربى مجلة الفن المعاصر أكاديمية الفنون المجلد الأول ١٩٨٧ .

٧. عبير السيد– فرق الرقص الشعبى– الهيئة العامة لقصور الثقافة– مكتبة الدراسات الشعبية – القاهرة ١٩٩١ .

٨. علا توفيق – التطور التاريخى للرقص الشعبى بمصر فى القرن العشرين–رسالة دكتوراه غير منشورة القاهرة كلية التربية الرياضية للبنات –جامعة حلوان ١٩٩٩

٩. فاطمة على عزب– رقصة مصرية ذات طابع قومى يؤديها جميع أفراد الشعب– مشروع قومى–المؤتمر الأول للفنون الشعبية والتراث المجلد الأول – كلية التربية الرياضية بنات الأسكندرية ١٩٩٣.

١٠.فاطمة محمد حسان– دراسات فى فن التعبير الحركى– دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .

١١.نادية الدمرداش– علا توفيق– مدخل الى علم الفولكور دراسة فى الرقص الشعبى– عين للدراسات والبحوث الأنسانية والأجتماعية الطبعة الأولى ٢٠٠٣.

١٢.عز الدين اسماعيل " توظيف التراث فى المسرح مجلة فصول الهيئة المصرية العامة للكتلب القاهرة ١٩٨٠ ص ١٧٨.

١٣.لقاء الباحقة مع الفنان محمود رضا يوم الاربعاء الموافق ٩ /١٠/ ٢٠٠٥